نظرية الكأس الفارغة وتسطيح العقول

عبد الرزاق قبا خليل

أحببت أن ألقي الضوء على جانب هام وخطير للغاية، وما دفعني لكتابة هذا المقال: هو الكم الهائل من البرامج التافهة والهادفة، ولا أقول اللاهادفة فلا يوجد برنامج تصرف فيه الملايين بل المليارات ولا يكون هادفا، لكن السؤال المطروح هو إلى ماذا يهدف ولماذا؟

إنه في ظل التطور الهائل لعصر المعلوماتية وانتشار الفضائيات كالطحالب، وما تقدمه من برامج، أقل ما يقال فيها، أنها قمة في التفاهة والتسطيح، (كالبرامج الترفيهية وبرامج صناعة النجوم، من الفنانيين، وبرامج المسابقات السخيفة، ألالعاب الألكترونية، برامج التيك توك... الخ)، وهنا تبرز نظرية الكأس الفارغة، فلو فرضنا جدلا أننا نمتلك كأسا، ونريد أن نملأه بشيء ما، فنحن لا نستطيع ذلك إلا إذا كان الكأس فارغا، وهو ما دأبت عليه قوى الظلام، من إفراغ العقل العربي، من محتواه الفكري، الجاد والرصين، والمحاكمة العقلية، وتقييم الأمور، وهنا يبرز دور القنوات الفضائية، التي دأبت على حشو الفكر العربي، بترهات لا قيمة لها.

وقبل ذلك بمدة كانت قد عملت على إفراغه تماما، ليصبح بإمكانها ملؤه بشتى صنوف التفاهة والفكر الاستهلاكي، الذي يشبه لحد كبير الوجبات الجاهزة، التي تم تصديرها إلينا وكمثال على ذلك ما تبثه القنوات الممولة للأسف بأموال العرب أنفسهم، من برامج ومسلسلات مدبلجة دخيلة على فكرنا وعادتنا وتقاليدنا، لا تضيف لنا أية قيمة فكرية، أو معرفية، وجل ما تفعله هو قتل الوقت واغتيال الفكر.

وأسوق إليكم هذه القصة للعبرة: دخل رجل على هارون الرشيد، وقال: إني استطيع أن أعمل عملا يعجز عنه جميع الناس. قال الرشيد: هات ما عندك فأخرج الرجل علبة فيها كثير من الإبر، فغرس إحداها في الأرض، ثم أخذ يرميها، إبرة إبرة، فتشتبك كل إبرة في ثقب الإبرة السابقة، ووقف مزهوا بما عمل، وانتظر من الخليفة جائزة عظيمة، فأمر الرشيد بضربه مائة جلدة ومنحه مائة دينار. فدهش الحاضرون لتصرف الخليفة، لكنه قال لهم: أعطيته مائة دينار مكافأة له على حذقه ومهارته، وضربته مائة جلدة لأنه يصرف ذكاءه فيما لا يفيد!. من هنا يتبين لنا أن ثقافة تسطيح الفكر وتهميشه ليست وليدة هذا العصر، بل هي موجودة في كل عصر، وقد راجت هذه الثقافة قديما، وانتشرت في مجتمعات التصفيق

والتطبيل، حيث قام على نشرها والتأكيد عليها زعماء وحكام وجبابرة البشر، وأرادوا من نشر ثقافة التسطيح تلك، تغييب الوعي العام عن عظائم الأمور والقضايا المصيرية، فكانت جلّ معارف شعوب أولئك الجبابرة، عبارة عن معلومات ضحلة غاية في السطحية للكثير، ولفترات طويلة من الزمن، حتى لم يعد لدى الكثيرين تلك القدرة على معرفة الحق أو تمييزه عن الباطل، أو إدراك الصواب من الخطأ، بسبب تلك الثقافة الممجوجة.

والعالم العربي اليوم يعيش أزمة ثقافية وفكرية حقيقية، تتضح ملامحها أكثر ما يمكن بين أوساط الشباب والشابات، الذين يعانون من الضياع والتشتت، وذلك على الرغم من أن العالم يعيش عصر المعلوماتية، يتحول العالم فيه إلى قرية صغيرة يسهل فيها الحصول على المعلومات، والتي كان من المؤمل منها أن تخلق ثقافة موسوعية ومعرفية، لكن الحقيقة المرة والظاهرة للعيان هي تفشي سطحية الثقافة، وضحالة التفكير لدى الغالبية العظمى من الشباب والشابات، وهذا بتوجيه أياد خفية تعمل ليل نهار على إفراغ العقل العربي من محتواه وحشوه بما يناسبهم ويخدم أهدافهم التخريبية، فحتى البرامج الحوارية والفكرية المعروضة على تلك القنوات تعمل على مبدأ الإقصاء والتهميش وكأننا في حلبة للمصارعة يسقط فيها الخصم بالضربة القاضية.

ولكن السؤال الأهم ما هو الهدف من هكذا سياسة وهكذا توجه إذا أردنا أن نجمل الأهداف بشكل مختصر؟ وسوف نجدها تتمحور حول النقاط التالية:

١– غياب للتفكير الجماعي الفاعل لا المنفعل للأحداث والقضايا العامة التي يمر بها العالم بصورة عامة والعرب والمسلمون بصورة خاصة بما ينعكس سلبا على القدرة على التحليل المنطقي للاحداث واستقراء التاريخ، واستشراف الحلول.

٢– يؤدي الفكر التسطيح في الغالب إلى استمرار المناهج التقليدية في الهيمنة على إدارة عجلة الثقافة والفكر والتحفظ تجاه التجديد والمجددين مما يعيق عملية الإبداع والإصلاح المجتمع وتطويره والنهوض به.

٣– يجعل الفكر التسطيح صاحبه كأسًا فارغة تتقبل أي شراب يسكب فيها بدون أدنى مقاومة أو تفكير وتقبل العادات الدخيلة والثقافات المستوردة، واللغات المعلبة، فتسطيح الفكر هو الغاية من وراء الدعوات المشبوهة للتخلي عن اللغة العربية وتهميشها بدلا عن العمل على تطويرها وجعلها تتواكب وتتواءم وتنافس في مجال الاستيعاب والاشتقاق والابتكار لمفردات الثورة التقنية والإلكترونية والمعلوماتية التي

نعيشها وإن تطوير قدرة اللغة العربية على الوفاء بمتطلبات العصر من أهم عوامل انتشارها وتألقها وضمان استمراريتها وخصوصا أنها لغة القرآن الكريم وهو الذي حماها من الاندثار والاضمحلال باعتبارها لغة حية متجددة.

٤- تسطيح الفكر هو المسؤول عن الانبهار بالآخر والاحساس بالتخلف والدونية أمام الغرب والتشرذم الحاصل بين العرب واجترار الماضي ونكء الخلافات، والتقوقع والانغلاق على الآخر.

٥- نشوء أجيال مستضعفة رغم كثرة عددها لكنها كغثاء السيل.

قال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: **(يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنا من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنا في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت)**[1].

وفي نهاية المطاف، الحديث يطول حول هذه القضية الشائكة والمرض المستشري، وأكاد أجزم أن الكثيرين سوف يمرون على المنشور مرور الكرام هذا إن قرؤوه كاملا وهذا سبب آخر لتسطيح الفكر، فأمة أقرأ باتت لا تقرأ وتهجر الكتاب وتجافيه ولاحل لنا إلا بإعمال العقل وملأ الكأس بما ينفع الناس والتحصن بالعلم والمعرفة والآيات القرآنية التي تحثنا على ذلك كثيرة منها:

- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (ق: ٣٧)
- كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (يونس: ٢٤).
- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (الرعد: ٣)
- وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (المائدة: ٥٨)
- إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (الأنفال: ٢٢)

[1] رواه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه